

التحرير والتنوير

ويؤخذ من الآية أن الماء المنزل من السماء لا يختلف مقداره وإنما تختلف مقادير توزيعه على مواقع القطر فعن ابن عباس : ما عام أقل مطرا من عام ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء . وتلا هذه الآية . وذكر القرطبي عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ما من سنة بأكثر من أخرى ولكن إذا عمل قوم المعاصي صرف الله ذلك إلى غيرهم فإذا عصوا جميعا صرف الله ذلك إلى الفياقي والبحار) اهـ . فحصل من هذا أن المقدار الذي تفضل الله به من المطر على هذه الأرض لا يختلف كميته وإنما يختلف توزيعه . وهذه حقيقة قررها علماء حوادث الجو في القرن الحاضر فهو من معجزات القرآن العلمية الراجعة إلى الجهة الثالثة من المقدمة العاشرة لهذا التفسير .

وجوز فريق أن يكون ضمير (صرفناه) عائدا إلى غير مذكور معلوم في المقام مراد به القرآن ؛ قالوا لأنه المقصود في هذه السورة فإنها افتتحت بذكره وتكرر في قوله (إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا) . وأصل هذا التأويل مروى عن عطاء . ولقوله بعده (وجاهدكم به جهادا كبيرا) .

وقيل الضمير عائد إلى الكلام المذكور أي ولقد صرفنا هذا الكلام وكررناه على ألسنة الرسل ليدذكروا .

(ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا [51] فلا تطع الكافرين وجاهدكم به جهادا كبيرا [52]) .

جملة اعتراض بين ذكر دلائل تفرد الله بالخلق وذكر منتهى الخلق . ومناسبة موقع هذه الجملة وتفريعها بموقع الآية التي قبلها خفية . وقال ابن عطية في قوله (ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا) : اقتضاب يدل عليه ما ذكر . تقديره : ولكننا أفردناك بالندارة وحملناك فلا تطع الكافرين) اهـ .

فإن كان عنى بقوله : اقتضاب معنى الاقتضاب الاصطلاحي بين علماء الأدب والبيان وهو عدم مراعاة المناسبة بين الكلام المنتقل منه والكلام المنتقل إليه كان عدولا عن التزام تطلب المناسبة بين هذه الآية والآية التي قبلها وليس الخلو عن المناسبة ببدع فقد قال صاحب تلخيص المفتاح (وقد ينقل منه (أي مما شب به الكلام) إلى ما لا يلائمه (أي لا يناسب المنتقل منه) ويسمى الاقتضاب وهو مذهب العرب ومن يليهم من المخضمين) الخ . وإذا كان ابن عطية عنى بالاقتضاب معنى القطع (أي الحذف من الكلام) أي إيجاز الحذف كما يشعر به قوله (يدل عليه ما ذكر تقديره الخ) كان لم يعرج على اتصال هذه الآية بالتي قبلها .

وفي الكشف : (ولو شئنا لخففنا عنك أعباء نذارة جمع القرى ولبعثنا في كل قرية نبيا يندرها وإنما قصرنا الأمر عليك وعظمناك على سائر الرسل (أي بعموم الدعوة) فقابل ذلك بالتصبر) اه . وقد قال الطيبي : (ومدار السورة على كونه A مبعوثا إلى الناس كافة ولذلك افتتحت بما يثبت عموم رسالة محمد A إلى جميع الناس بقوله تعالى (ليكون للعالمين نذيرا) .

وليس في كلام الكشف والطيبي إلا بيان مناسبة الآية لمهم أغراض السورة دون بيان مناسبتها للتي قبلها .

والذي أختاره أن هذه الآية متصلة بقوله تعالى (وقال الذين كفروا لو لا نزل عليه القرآن جملة واحدة) الآية فيعد أن بين إبطال طعنهم فقال (كذلك لنثبت به فؤادك) انتقل إلى تنظير القرآن بالكتاب الذي أوتيته موسى عليه السلام وكيف استأصل □ من كذبه ثم استطرد بذكر أمم كذبوا رسلهم ثم انتقل إلى استهزاء المشركين بالنبي A وأشار إلى تحرج النبي A من إعراض قومه عن دعوته بقوله (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا) . وتسلسل الكلام بضرب المثل بمد الظل وقبضه وبحال الليل والنهار وإرسال الرياح . أماراة على رحمة غيثة الذي تحيا به الموت حتى انتهى إلى قوله (ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا) ويؤيد ما ذكرنا اشتغال التفريع على ضمير القرآن في قوله (وجاهدكم به) . ومما يزيد هذه الآية اتصالا بقوله تعالى (وقال الذين كفروا لو لا نزل عليه القرآن جملة واحدة) أن بعث نذير إلى كل قرية ما هو أشد من تنزيل القرآن مجزأ ؛ فلو بعث □ في كل قرية نذيرا لقال الذين كفروا : لو لا أرسل رسول واحد إلى الناس جميعا فإن مطاعنهم لا تقف عند حد كما قال تعالى (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لو لا فصلت آياته أعجمي وعربي) في سورة حم السجدة